مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة العلوم الإنسانية عدد (6) لعام 1417 هـ 1996 م عدد خاص بندوة التعريب وصلته بشخصيتنا الوطنية والقومية

الدلالة الذاتية والدلالة الإيحائية نظرة لسانية في عملية النقل بين العربية والفرنسية

د. بسام بركة*

مقدمة:

سأتناول في بحثي هذا مسألة نوعين من الدلالة: الذاتية والإيحائية، وسأحاول أن أبين دورهما في عملية النقل بين الفرنسية والعربية. ولا بد لي في بداية الكلام من التذكير بالدور الذي يقومان به في عملية النقل من لغة إلى أخرى، وكذلك بالتحديد اللساني لكل منهما.

إذا كانت الترجمة نقل الكلام من لغة إلى أخرى، فإنه من البديهي أن نقول إنها من هذا المنطلق إيصال الفكرة نفسها التي يحملها هذا الكلام، وإثارة الموقف نفسه الذي يثيره في نفس المتلقي وفي سلوكه. وهذا يعني أن نقل نصٍّ ما من لغة إلى أخرى إنما هو عملية يعيد بها المترجم تركيب بنيات هذا النص الدلالية والأسلوبية والبراغماتية في اللغة المنقول إليها.

ومن البديهي كذلك أن نقول إن الترجمة تتناول أساساً المضمون الدلالي للكلمة والعبارة والجملة. وهذا يعني أنه إذا كانت الإشارة اللغوية تتكوّن من دالّ (الصورة الصوتية) ومن مدلول (المفهوم الدلالي)، فإن الترجمة تتمحور ولا شك حول المدلول.

لقد ركزت اللسانيات في تحليلها للمدلول على وجود نوعين من الدلالات: الدلالة الذاتية (dénotation) والدلالة الإيحائية (connotation). وهما يقومان بدور رئيس في عملية بناء الهيكلية المعنوية للنص، وعلى المترجم بالتالي أن يعي دور كلٍّ منهما في هذه الهيكلية إذا شاء أن تكون ترجمته أمينة ودقيقة.

ما هو تحديد كل نوع من هذين النوعين من الدلالة؟ أقدّم مثالاً بسيطاً: كلمة "بترول": لها دلالة ذاتية يمكن أن نحدها بما يلي: "زيت للوقود والاستصباح، يُستنبط

* الدكتور بسام بركة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجامعة اللبنانية - بيروت - لبنان.

من بعض أجواف الأرض" (المعجم الوسيط).

هذا ما نجده في المعجم. [والواقع أن بعض علماء اللسانيات يعرّفون الدلالة الذاتية بأنها تتضمن العناصر الدلالية التي توجد في قاموس اللغة]. لكن هناك مضامين دلالية أخرى لكلمة "بترول"، وهي تختلف باختلاف المجتمعات، منها: الغِنى، الثروة الفاحشة، المال الوفير (هذه الدلالة هي التي أدت إلى خلق كلمة: "الذهب الأسود" للدلالة على البترول)، أو: الهدر، الثروة الضائعة، الشعب العربي المبدد، الخ. هذا النوع الأخير من الدلالات لا نجده في المعجم، ولكنه موجود في عدد كبير من استعمالات الكلمة. وهو ما يسمى بالدلالة الإيحائية.

إذاً: هذا مثال لكلمة واحدة، ذات دلالتين، ذاتية وإيحائية.

مثال آخر: دلالة ذاتية واحدة تحملها عدة كلمات، الاختلاف بين هذه الكلمات يكون في الدلالة الإيحائية. إذا انتقل شخص ما إلى رحمته تعالى، أن يُقال: رحمه الله أو انتقل إلى رحمته تعالى، توفيَّ، مات، نفَقَ، فَطَس. الدلالة الذاتية واحدة (وهي الانتقال من الدنيا الفانية إلى الآخرة).

أما الدلالة الإيحائية فمتعددة: دلالة الإيمان بالله وبالآخرة (طلب الرحمة) -دلالة العاطفة والاحترام ("تُوفّي")- الدلالة العادية أو الحيادية ("مات") -الدلالة الاحتقارية ("نفق"، فطس).

الدلالة الذاتية:

تتكون الدلالة الذاتية من المضمون إعلامي (المنطقي) للإشارة اللغوية، ويمكن أن نحده "بالعلاقة بين الكلمة وما تدل عليه من شخص أو شيء أو صفة أو حدث خارج النظام اللغوي. أي بمعنى الكلمة كما يفهمه جميع متكلمي اللغة الواحدة" (محمد علي الخولي، **معجم علم اللغة النظري**، مكتبة لبنان، بيروت، 1982، ص. 68-96). وهذا يعني أن الدلالة الذاتية تقوم بشكل عام على العلاقة المرجعية للإشارة اللغوية.

أما في ما يتعلق بدور الدلالة الذاتية في الأسلوب الأدبي فإن عالِم الأسلوبية الفرنسي جورج مولينيه يقول: "ليست الدلالة الذاتية مسألة مهمة في الأسلوبية: إنها تكون القاعدة الأساسية التي يتحرك عليها النص، وعالمه، ومحيطه، ولكنها رغم ذلك لا تكون العنصر الأساس في "أدبية" النص. وهي ترتبط، في الأدب، ارتباطاً تاماً بالسياق، وقد يحصل لها أن تحوَّل أو حتى تشوه عن طريق وجود الدلالة الإيحائية.

إذا سلمنا جدلاً مع مولينيه بأن دور الدلالة الذاتية ليس مهماً جداً في الأسلوب الأدبي في اللسان الواحد، فإنني أرى أنه ذو أهمية كبيرة في عملية النقل. ولكن، وقبل أن أسوق الأمثلة أود أن أذكر بما قاله ميشيل لورغوارن عن الدلالة الذاتية. فهو يربط بينها

وبين عملية الترجمة، ويذهب إلى بناء تحديده لها على أساس النقل من لغة إلى أخرى. فهو يقول: "وأشد ما يرضينا هو أن نعد الدلالة الذاتية بمثابة مجموع العناصر اللسانية التي يمكن عند الاقتضاء أن نترجمها إلى لغة طبيعية أخرى بواسطة آلة مترجمة" (ص. 20).

انطلاقاً من هذه التحديدات الخاصة بالدلالة الذاتية، في اللغة والأسلوب والترجمة، أتناول الأمثلة التالية:

إذا أخذنا عبارة مثل: Les oiseaux traversaient le cile، أول ما يخطر على البال هو ترجمتها بـ: "كانت العصافير تجوب السماء". ولكن المعادلة المعجمية هنا لا تفي بالغرض. لنضع هذه العبارة في سياقها الأصلي:

Les oiseaux traversaient le cile comme des fantômes lumineux, sans un froissement d'ailes, sans un cri. (222).

هنا يتضح أن الدلالة الذاتية لكلمة Oiseau ليس العصفور، فالعصفور يحمل دلالات إيحائية لطيفة ومرحة، الكلمة الصحيحة المعادلة التي تقتصر على الدلالة الذاتية للكلمة الفرنسية دون أية دلالات أخرى هي كلمة "طير"، وتكون بذلك ترجمة هذه الجملة على النحو التالي:

"كانت الطيور تمرّ في السماء (أو تجوب السماء مثل) مرور أطيافٍ من نور، بلا حفيف أجنحة ولا صياح".

هاكم مثالاً آخر:

سولكي شاب تزوج من فتاة رائعة الجمال تدعى تاييرا. أحبها وأحبته , ولكن، في مساء يوم من الأيام، تدثرت الزوجة المحبوبة بغطائها وهي ترتجف. سهر سولكي على رعايتها الليل بطوله ولكن:

A l'aube, le regard étonné, dans le premier soleil, elle mourut. Solki connut la douleur épouvantable de l'amant à jamais abandonné. (Henri gougaud, l'arbre à soleils, P. 221)

في هذه الجملة عبارتان: regard étonné و premier soleil. إذا نقلنا الدلالة الذاتية كما هي في المعجم نحصل على الترجمة الحرفية التالية: نظرة مذهولة (أو مندهشة) والشمس الأولى. [عند الفجر ماتت بنظرة مندهشة في الشمس الأولى]. جملة ليس لها أي معنى في اللغة العربية وهي لا تفي بتاتاً بالغرض الذي وجدت من أجله في النص الأصلي. إذا عدنا إلى السياق، وجدنا المقصود لانظرة "العين" وبالشمس "أشعة الشمس عند شروقها". لذلك أقترح ترجمتها بما يلي:

"عند الفجر، ماتت وفي عينها يلمع بريق شعاع الشمس الأول".

"عند الفجر، ماتت وعيناها مفتوحتان تلمع فيهما الشمس البازغة".

عين أو عينان: regard

مفتوحتان: étonné

بازغة: premier

الدلالة الذاتية تغيرت بفعل الترجمة، ولكن التغيير الذي يدخله المترجم هنا يأتي لخدمة المعنى الأساسي الذي يفرضه السياق (اللغوي وغير اللغوي).

مثال آخر:

Une lueur amusée brille dans son regard noir

وميض فرح في عينها السوداء (عينيها السوداوين). هنا،يدل السياق (اللون الأسود) على أن الدلالة الذاتية المقصودة في كلمة regard ليس "النظرة" ولكن "العين" (أو العينان).

هكذا نجد أن الدلالة الذاتية التي ترتبط بالمعجمية اللغوية لا بدّ وأن تمر بتحولات أساسية في عملية النقل، وهذه التحولات تمليها إشارات موجودة في السياق أو في الدلالات الإيحائية المصاحبة له.

أما من حيث المفردة وفئتها النحوية، فإن الدلالة الذاتية لابد أن ترتبط ولو جزئياً الفئة النحوية التي تنتمي إليها الكلمة(اسم، فعل، صفة، الخ). هذه الفئة قد يضطر المترجم إلى تغييرها إذا أراد المحافظة على الدلالة الذاتية للكلمة في النص الأصلي. أسوق المثالين التاليين:

المثال الأول:

Bientôt, bouleversé, il aperçut Taïra sur la plage de l'île des âmes motres. (223)

وما لبث أن ارتبك/اضطرب عندما لمح/شاهد تايرا على شاطئ جزيرة الأرواح الميتة.

المثال الثاني:

في محاضرة ألقيتها في المؤتمر الذي خُصِّص لتكريم الشاعر اللبناني باللغة الفرنسية صلاح ستيتية، في الجامعة اللبنانية في بيروت، ذكرت عنوان أحد دواوينه وهو باللغة الفرنسية: L'eau froide gardée. لقد تُرجم هذا العنوان بعبارة: "الماء البارد المحروس"، ترجمة حرفية للدلالات الذاتية. ولكن بعد اطلاعي على الديوان وجدت أن الشاعر يقصد بهذا العنوان مدينة بيروت، التي تستقي اسمها على ما يبدو من الآبار التي كانت تحيط بها، وكانت تحفظ الماء بارداً خلال أيام الصيف الحارة. لذلك وجدت أن أفضل مقابل لهذا العنوان هو: "الماء المحفوظ بارداً" أو "الماء بارداً محفوظاً". كان صلاح ستيتية معنا على المنصة، عرضت هذه الترجمة وطلبت منه رأيه. فأشار بيديه إشارة من لا يعرف أو من لا يعنيه الأمر.

الدلالة الإيحائية:

تتكون الدلالة الإيحائية من "مجموع الأنظمة الدالة التي يمكن اكتشافها في نص ما والتي تأتي إضافةً إلى الدلالة الذاتية" (لوغوارن، دلالة الاستعارة والمجاز المرسل، ص. 20). وهي تحد إجمالاً بكونها "المعنى

الإضافي الذي توحي به كلمة ما زيادة على معناها الأصلي" (محمد علي الخولي، ص. 54).

لقد تكلم عن مفهوم مماثل عدد كبير من اللغويين القدامى، نذكر منهم علماء "بور رويال" في فرنسا (القرن السابع عشر)، الذين تحدثوا عن "الأفكار الثانوية (أو الإضافية أو الحافة idées accessoires) في كتابهم عن "المنطق".

ويمكن التمييز بين نوعين من الدلالة الإيحائية: نوع اجتماعي ونوع نفسي. ولكنها في جميع الحالات تكون عند المتلقي إما حرة أو إجبارية. وهناك من يرى أن الدلالة الإيحائية تكون حرة على الأخص في النص الشعري.

فالقصيدة غالباً ما تتضمن "فجوات منطقية" يفسرها كل قارئ أو سامع وفقاً لخياله، أو لثقافته، أو لتجربته الحياتية الخاصة، أو لمعرفته بالشاعر نفسه. ولكن حرية اكتشاف الدلالات الإيحائية في القصيدة لا تكون حرية كاملة تتعلق بالمتلقي الفرد. فإذا قرأنا بيتاً واحداً من الشعر، أو عبارة واحدة من هذا البيت، دون سائر الأبيات وبمعزل عنها، فإن الدلالة الإيحائية فيه تتضمن من المعاني ما لا يتضمنه حكماً البيت نفسه إذا قرأناه ضمن القصيدة أو من خلال الديوان كله.

لهذه الأسباب يرى ميشيل لوغوارن أن وظيفة الدلالة الإيحائية في ميدان الاستعارة دلالة نفسية، وهي إجبارية وغير حرة. كذلك يؤكد على أن الدلالة الإيحائية لا تضيف أي معلومة على الوظيفة المعرفية (المنطقية) للنص. والواقع إن غِنى الدلالات (الذاتية وافيحائية) في النص الشعري أمر عرفه العديد من البلاغيين وعلماء الأسلوب الغربيين. ونذكر منهم "ريتشاردس" الذي يقول: "عندما نستعمل استعارة تتكون في ذهننا فكرتان مختلفتان تعملان في الوقت نفسه، وتحملهما كلمة واحدة، وجملة واحدة، يكون معناها نتاج تضافر هاتين الفكرتين" (فلسفة البلاغة، مذكور في لوغوارن، ص. 22).

وقد ذهب جورج مولينيه إلى أن ينفي وجود الدلالة الإيحائية في النص العلمي، فجعل منها قيماً يلتزم بها كل نص أدبي رفيع. فهو يقول، في "معجم الأسلوبية"، إن الدلالة الإيحائية تكاد تكون معدومة في الخطاب العلمي، ولكنها أساسية في الخطاب الأدبي. وهي معقدة ومتعددة المستويات والاستعمالات، لذلك يرى بعضهم أنه من الأفضل التحدث لا عن دلالة إيحائية بل عن قيم إيحائية تظهر بجوار الدلالة الذاتية، فهي إما تتجاور معها أو تعمل على منافستها حتى درجة إلغائها (في النص الشعري الخالص).

اختصاراً للوقت، أسوق مثالاً واحداً هو مطلع قصيدة رائعة للشاعر الفرنسي "أبوللينير":

Apollinaire (Alcools):

Le mai le joli mai en barque sur le Rhin
Des dames regardaient du haut de la montagne
Vous êtes si jolies mais la barque s'éloigne
Qui donc a fait pleurer les saules riverains

Or des vergers fleuris se fieuris se figeaient en arrière
....

إن الدلالة الذاتية لكلمة mai في الترجمة الآلية التي يتكلم عنها لوغوارن أو في الترجمة العادية هي ولا شك شهر "مايو" أو "أيار". وتكون ترجمة البيت الأول من هذه القصيدة:

"أيار، أيار الجميل...". الحقيقة أن مثل هذه الترجمة تفي بالمعنى الأساسي للكلمة ولكنها تخون قيمتها الإيحائية.

يقول أندريه مارتينه: "إن أبسط طريقة يستخدمها الكاتب لفرض معانيه الإيحائية هي أن يخلق السياقات التي تناسب الحالات التي هي أساس هذه الإيحاءات "Connotation, poésie et culture" (في To Honor R. Jakobson).

الشاعر أبوللينير يستعمل في هذه القصيدة سياقات متعددة للدلالة على بهجة الفرح والنور التي تصاحب مجيء الربيع في شهر أيار. فالكلمة التي نحن بصددها ترتبط بالصفة "جميل" joli ثم تأتي هذه الصفة نفسها لتصف السيدات الجميلات. وأخيراً يبدأ المقطع الثاني من القصيدة بكلمة fleuri مُزْهِر. وهكذا ينبغي على المترجم أن يأتي بكلمة تدل على هذه البهجة وهذه الأزهار التي يحتفل بها الربيع في شهر أيار. من هنا، أجد أن الترجمة الجيدة لكلمة mai في هذا السياق، هي كلمة "نَوّار". وتكون ترجمة المقطع الأول من هذه القصيدة كما يلي:

نوّار نوار الجميل في مركب في النهر
سيداتُ كنَّ ينظرن من أعلى الجبل
أنتنّ جميلات جداً لكن المركب يبتعد
من ذا الذي أبكى الصفصاف على ضفاف النهر

هكذا، تكون الترجمة عملية معقدة لا ترتبط بالكلمة ومقابلاتها فحسب. إنها ترتبط باللغة، وفي اللغة نجد البيئة والثقافة. وهي ترتبط كذلك بالخطاب وبعملية التواصل بين الأشخاص، بمعنى أن المرسل يخلق الخطاب في سبيل التبليغ وفي سبيل أن يؤثر على المُرسَل إليه، إما بالدلالة الذاتية المباشرة للكلمات أو بدلالات إيحائية يبثها في الكلمات وبين السطور.

وإذا كانت عملية الترجمة ترتبط بالألفاظ والمعاني الموجودة في النص الأصلي، فإن الأساس في هذه العملية هو العودة إلى كل مكونات هذه المعاني، من المرجع والدلالة الذاتية إلى القيم الإيحائية والسياق اللغوي وغير اللغوي. وإذا كنت أتكلم هنا عن السياق غير اللغوي، فلأن المرجع من العناصر الأساسية في بناء الخطاب. وعلى المترجم أن يعتد لا

بالمعاني المعجمية، بل بالعالم الذي تتكلم عنه الجملة، أي ذلك الكم الكبير من الخصائص والأحداث والصفات التي أراد الكاتب (الروائي أو الشاعر أو المسرحي،...) أن يضعها في أسّ العالم الذي يقدمه للمتلقي.

المراجع

- محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، 1982.

- Michel Le Guern, Sémantique de la métaphore et de la métonymie, Larousse, Paris, 1973.

- Henri Gougaud, L'arbre à soleils, Points, Seuil, Paris, 1979

- Jean Kazaleyrat et Georges Molinié, Vocabulaire de la stylistique, P.U.F. Paris, 1989